(المجلس الثالث)

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد..

معاشر الإخوة الكرام.. أبدأ حديث اليوم باقتراحٍ على الجميع؛ ولا سيما الآباء وكذلك الأمهات في البيوت بمناسبة قراءتنا في هذا الكتاب: [**تُحفة الأخيار**]، والكتاب -كما عرفنا- كتابٌ مختصر إلا أنه جمع فيه الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ مهمات هذا الباب مما جاء في كتاب الله وسُنَّة نبيه -صلوات الله وسلامه عليه-.

ولهذا أقترح أن يكون هناك عناية بالبيوت حتى تُحصن البيوت بذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ويبتعد الشيطان، وتعمر البيوت بالخير والطمأنينة والسكون، فاقترح أن يكون هناك تفعيل لهذا الكتاب في البيوت قراءةً وحفظًا، ويمكن أن توجد منافسات بين الأبناء والأولاد والبنات بحفظ هذا الكتاب، وأيضًا العناية بقراءة كل ذكرٍ ورد في مقامه وفي وقته على ضوء ما جاء في سُنَّة النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ومتى عَمَر البيت بذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ونشأ الأبناء على ذكر الله فإن هذا من أمارات الخير، وأمارات الفلاح، وأمارات السلامة بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في الدنيا والآخرة.

ولهذا ينبغي حقيقة أن يكون هناك اهتمامٌ مضاعف بهذا الجانب في البيوت بين الأهل والأولاد والأبناء، ويوجد بينهم منافسات وحثٌ وترغيبٌ وتشجيع، وأسأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يعمر بيوتنا جميعًا بذكره وشكره وحُسن عبادته.

المتن:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والإكثار من ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ودعاءه سبحانه مستحبٌ في جميع الأوقات والمناسبات، وفي الصباح والمساء، وعند النوم واليقظة، ودخول المنزل والخروج منه، وعند دخول المسجد والخروج منه؛ لما سبق من الآيات الكريمات.

الشرح:

هنا الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُنبِّه على أن الذكر ليس له وقتٌ محدود، بمعنى أن الله جَلَّ وَعَلَا لا يُذكر إلا في هذا الوقت، بل ذكر الله جَلَّ وَعَلَا له كل وقت، وكل حين، وكل مناسبة.

وقد جاء في صحيح مسلم أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يذكر الله في كل أحيانه؛ قائمًا، وقاعدًا، وعلى جنب، وهو سائر، وهو واقف، في كل أحيانه يذكر الله جَلَّ وَعَلَا، ولهذا ليس لذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وقتٌ يُقال: إن ذكر الله إنما يكون في هذا الوقت دون غيره، فالله جَلَّ وَعَلَا يُذكر في كل وقتٍ.

لكن جاءت السُّنَّة بتفضيل بعض الأوقات بأذكارٍ معينة مقيدة في تلك الأوقات واظب عليها، وتكون وظيفةً راتبةً للمسلم في تلك الأوقات كما جاءت في سُنَّة النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

لأجل هذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**والإكثار من ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ودعاءه سبحانه مستحبٌ في جميع الأوقات**)؛ في جميع الأوقات يعني: في الصباح، في المساء، في الليل، في النهار، في أي ساعة، وفي جميع المناسبات؛ أي: عند دخول المنزل، عند الخروج، عند تناول الطعام، عند الفراغ من الطعام، عند ملاقاة الإخوان، إلى غير ذلك من المناسبات؛ فالله جَلَّ وَعَلَا يُذكر في كل وقتٍ، ويُذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كل مناسبة.

قال: (**وفي الصباح والمساء**)؛ قوله: وفي الصباح والمساء هذا داخل في عموم ما سبق، ولكنه خصَّ هذه الأوقات بالذكر لعظيم فضلها، ولما جاء في السُّنَّة من التأكيد عليها؛ وخاصةً أذكار الصباح والمساء كما سيأتي عند المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال: (**وفي الصباح والمساء**)؛ أي: يواظب على أذكار الصباح التي تكون في أول النهار، وأذكار المساء التي تكون في آخر النهار. (**وعند النوم واليقظة**)؛ أي: واليقظة منه، فهناك أذكارٌ تُقال عند النوم؛ أي: عندما يأوي المسلم إلى فراشه لينام، وهناك أذكارٌ تُقال إذا استيقظ من نومه، وسيأتي نماذج وأمثلة على ذلك عند المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال: (**ودخول المنزل والخروج منه**)؛ أيضًا لدخول المنزل ذكرٌ، وللخروج منه ذكرٌ ثبت عن النبي الكريم -عليه صلوات الله وسلامه-.

قال: (**وعند دخول المسجد والخروج منه**)؛ والدخول للمسجد والخروج منه أيضًا له أذكاره الثابتة في سُنَّة النبي -صلوات الله وسلامه عليه-.

فالشاهد: أن كل ذلك ينبغي على المسلم أن يعرفه ويتعلمه أولًا، ومن ثم يواظب عليه ويحافظ عليه في أوقاته كما جاء في سُنَّة النبي الكريم -صلوات الله وسلامه عليه-.

قال: (**لِما سبق من الآيات الكريمات**)؛ مرَّ معنا آيات عديدة عند المصنف فيها الحث على الإكثار من ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولما سيأتي أيضًا من آياتٍ سيذكرها.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولقوله تعالى أيضًا: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [سورة غافر، من الآية:٥٥]، وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾[سورة ق، من الآية:٣٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٥٢]، وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [سورة مريم، من الآية:١١]، وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾[سورة الطور، من الآية:٤٨-٤٩]، وقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [سورة الروم، من الآية:١٧-١٨].

الشرح:

ثم ساق المصنف هنا جملةً من الأدلة من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ مختصةً ببيان فضيلة ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الصباح والمساء.

وقد نبَّه العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أن أذكار الصباح والمساء من أوسع الأذكار ورودًا في القرآن وسُنَّة النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حثًّا عليها، وترغيبًا فيها، وذكرًا لعظيم فضلها، وعظيم ثوابها عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولهذا جاءت نصوص كثيرة في القرآن أورد طرفًا منها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا، وأورد كثيرًا منها العلماء في كتب الأذكار؛ مما

يدل دلالةً واضحة على أن هذين الوقتين الصباح والمساء، الصباح الباكر، والعشي آخر النهار قبل غروب الشمس وقبل طلوعها، هذان الوقتان مختصان بمزيد فضلٍ ومزيد اهتمامٍ وعناية في هذين الوقتين بذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ووقت الصباح الذي هو قبل طلوع الشمس وبعد صلاة الصبح؛ هذا من أفضل الأوقات لذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وقد جاء فيه خاصةً نصوصٌ خاصة إضافةً إلى النصوص العامة التي تدل على فضل هذين الوقتين الصباح والمساء جاءت في نصوص الشرع، ما جاء في نصوص الشرع ما يدل على عِظم فضل الصباح الباكر في موضوع الذكر، والعناية بذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وقد جاء في سنن الترمذي وغيره من حديث صخر بن وداعة الغامدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا**»، فوقت الصباح كما يدل عليه هذا الحديث، أو هذه الدعوة المباركة من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقت بركة وقتٌ مبارك، وقتٌ كما قال العلماء: "وقت قسم الأرزاق، وحلول البركات، ونزول الخيرات"، فهذا الوقت لم يكن السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ يُفرِّطون فيه، ولم يكن يضيع عليهم، بل كان لهم عنايةٌ خاصة، واهتمامٌ بالغ في هذا الوقت الذي هو وقت الصباح الباكر، بينما كثيرٌ منا لا يفوِّت النوم في هذا الوقت، ويرى أن النوم في هذا الوقت لا يفوِّت بأي حالٍ من الأحوال حتى وإن شبع من النوم ليلًا، وأخذ حظًّا نصيبًا وافرًا في الليل، لا يرى أن يفوِّت النوم بعد صلاة الفجر.

بينما السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ لم يكونوا يفوِّتون هذا الوقت في الجلوس فيه لذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، حتى قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: [**مدارج السالكين**] قال: "حتى إنهم إذا سافروا بالليل، وبلغ بهم العناء مبلغًا، وكانوا يمشون في الليل كله، إذا صلوا الفجر لا ينامون حتى تطلع الشمس"، مع شدة التعب ما كانوا ينامون في هذا الوقت إلى أن تطلع الشمس؛ لأنه وقت ذكرٍ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وقت خيرٍ وبركة.

والعلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ يقولون: "إن الشيء الذي يكون من الإنسان في الصباح ينسحب على بقية اليوم"، حتى قال أحد السلف كلمة جميلة جدًا، أحد السلف المتقدمين قال في هذا الشأن كلمةً جميلةً جدًا، قال: "يومك مثل جَمَلك، إن أمسكت أوله تبعك آخره"، ومراده بأوله: أول اليوم؛ أي: الصباح الباكر الذي قال فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بُورِكَ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا**»، هذا الوقت في زماننا هذا إما يكون ضائعًا في النوم، أو في الكسل

والخمول، أو في ما لا فائدة فيه ولا نفع إلا من رحم الله من عباده ممن لا يفوتون هذا الوقت من العناية والاهتمام بذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فيه.

أعطيكم مثالًا بديعًا جدًا يُبيِّن لنا حال الصحابة وحال السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ مع هذا الوقت المبارك، جاء في صحيح مسلم عن أبي وائل شقيق ابن سلمة رَحِمَهُ اللَّهُ وهو من التابعين، ومن أصحاب عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يقول: أتيت أنا ونفرٌ معي ابن مسعودٍ في الغداة؛ يعني: في الصباح الباكر بعد صلاة الفجر، أتيناه في بيته، فاستأذنا؛ فأُذن لنا، استأذنا في الدخول فأُذن لها؛ فانتظرنا هُنيةً -يعني انتظرنا قليلًا لم ندخل-، ثم أتت الجارية وقالت: ما لكم لا تدخلون؟ يعني: أُذن لكم في الدخول، فما لكم لا تدخلون؟ فدخلنا، دخلنا البيت، فلما دخلنا على ابن مسعود، قال لنا: ما لكم تأخرتم في الدخول؟ -يعني: ما سبب التأخر وقد أُذن لكم في الدخول؟- قلنا: ظننا أن بعض الأهل نائم -الآن متى الوقت؟ بعد الفجر-، قال: ظننا أن بعض الأهل نائم، فيقول: يعني قصده انتظرنا قليلًا حتى يرتب الوضع إذا كان في طريقنا نائم أو كذا، يقول: ظننا أن بعض الأهل نائم، فماذا قال ابن مسعود؟

قال: ظننتم بآل ابن أم عبدٍ غفلة؟ يعني: أهله وولده، هل ظننتم أنهم عندهم غفلة؟ هذا يصور لنا يا إخوان ماذا؟ يصور لنا مكانة هذا الوقت عند الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قال: أظننتم بآل ابن أم عبدٍ غفلة؟ يعني: أن يوجد فيهم من ينام في هذا الوقت؟!

ثم يقول أبو وائل شقيق ابن سلمة، يقول: فأخذ ابن مسعودٍ يُسبِّح الله ويذكر الله، يُسبح ويذكر الله جَلَّ وَعَلَا، ثم لما ظنَّ أن الشمس طلعت قال للجارية: أنظري أطلعت الشمس؟ فنظرت الجارية، فقالت: لم تطلع، فأخذ يسبح، استمر في التسبيح، ثم لما ظن أن الشمس طلعت قال للجارية: أنظري أطلعت الشمس؟ قالت: طلعت.

الآن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استغرق هذا الوقت الفاضل في ماذا؟ في التسبيح وذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ثم لما قالت له الجارية: إن الشمس قد طلعت، قال كلمة عجيبة والله! قال كلمة عجيبة جدًا، والحديث تجدونه في صحيح مسلم، قال: "الحمد لله الذي أقالنا يومنا هذا ولم يُهلكنا بذنوبنا"، أسمعوا الكلمة مرةً ثانية، قال: "الحمد لله الذي أقالنا يومنا هذا ولم يُهلكنا بذنوبنا".

الآن يا إخوان لما قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "الحمد لله الذي أقالنا يومنا هذا" هل اليوم انتهى؟ ما زالوا في أول اليوم، طلعت الشمس وبقي من اليوم أكثره.

ثم يقول ابن مسعود وهو في أول اليوم: "الحمد لله الذي أقالنا يومنا هذا"، لماذا قال هذه الكلمة مع أن اليوم بقي أكثره؟ لأن ما يكون في هذه الفترة المحدودة الموجزة القصيرة التي هي في أول اليوم كما يقول العلماء: ما يكون فيها ينسحب على اليوم كله، إن ذِكرًا فذكر، إن نشاطًا فنشاط، إن كسلًا فكسل، كل ما يكون في هذه الفترة ينسحب على بقية اليوم، ولهذا قال ابن مسعود لما انتهت هذه الفترة وطلعت الشمس وهو ذاكرٌ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وليس غافلًا، حمد الله أنه أقاله يومه هذا مع أن اليوم لم ينتهي بعد، قال: "الحمد لله الذي أقالنا يومنا هذا ولم يُهلكنا بذنوبنا".

هنا تُعطيك عنايتك بأول اليوم، وبالصباح الباكر عنايتك به ذكرًا لله وعنايةً بذكر الله، يُعطيك بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أمانًا في اليوم كله، طمأنينةً في اليوم كله، صلاحًا في اليوم كله، إقالةً في اليوم كله، "أقالنا يومنا هذا"، فإذا حفظت أول اليوم بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يسلم لك بقيته، يا إخوان انتبهوا لها! إذا حفظت أول اليوم سلم لك بقية اليوم، مثل ما قال أحد السلف ونقلت لكم كلامه: "يومك مثل جَمَلك، إن أمسكت أوله تبعك آخره".

ولهذا جاء عن عبد الله بن عباس أنه دخل البيت فوجد أحد أولاده نائم، فنهره قال: "تنام في هذا الوقت الذي تقسم فيها الأرزاق؟" هذا وقت البركة، «**بُورِكَ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا**»، يكفينا هذا الحديث، «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا**»، أيناسب أن نسمع هذه الدعوة المباركة الميمونة، ثم نسحب الوسادة وننام؟! وقت مبارك عظيم البركة، دعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمته فيه بالبركة، «**بُورِكَ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا**»، صخر راوي الحديث مع أن هذا الحديث أيضًا رواه أكثر من عشرة من الصحابة، دعاء النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ للأمة في بكورها رواه أكثر من عشرة من أصحاب النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، صخر الغامدي أحد رواة الحديث كان تاجرًا، وكان لا يُرسل تجارته إلا في الصباح الباكر، حتى إنهم قالوا: وأثرى جدًا بارك الله له في ماله، ما كان يرسل أي تجارة إلا في الصباح الباكر، يتحرَّى دعوة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهذا من فقه السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

ولهذا كان السلف يعدُّون نوم الصبح، ونوم هذا الوقت الباكر خُرق، يعني: ما يليق بالإنسان أن يُمضي هذا الوقت في النوم، بل إن ابن القيم -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ- في كتابه: [**مدارج السالكين**]، قال عن السلف: "كانوا يكرهون نوم الصبحة"، نوم الصباح الباكر، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومن المكروه عندهم النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس، فإنه وقت غنيمة"، هذا نص كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ في [**مدارج السالكين**]، يقول: "ومن المكروه عندهم -يعني: عند السلف- النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس، فإنه وقت غنيمة"، فكان هذا الوقت

معروفة قيمته عند السلف، معروفة قيمته ومعروفة مكانته، وكانوا يهتمون به اهتمامًا عظيمًا، ومر معنا نماذج وأمثلة من عناية السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في هذا الوقت المبارك.

كان للسلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في هذا الوقت شأنٌ، ولغيرهم معه شأنٌ آخر، كان لهم شأن مع هذا الوقت، مع أنه وقتٌ قصير، الشمس بعد صلاة الصبح تطلع في أقل من ساعة، أو في ساعة بالكثير، وقت قصير جدًا، إذا مسكت هذا الوقت وحفظته، وحافظت عليه، واهتممت به بذكر الله؛ احمد الله، مثل ما قال ابن مسعود: "احمد الله وقل الحمد لله الذي أقالنا يومنا هذا"، مع أن يومك لم ينتهي بعد، لكن ما كان منك من حفظٍ لأول اليوم ينسحب على بقية اليوم؛ لأن البركة التي تكون في أول الصباح إذا حضرت عمَّت يومك كله، أيليق بعد هذا أن تكون هذه اللحظات، أو هذه الدقائق المعدودات أطيب أوقات النوم عندنا؟! وأفضل أوقات النوم عندنا! ولا نفوتها بأي حالٍ من الأحوال!

مع أن من الملاحظ أن من ينام بعد صلاة الفجر نومه في هذا الوقت كما أنه يُضر به من حيث فوات هذه الفضيلة فوات الربح والغنيمة والبركة؛ فإن له ضررًا تكلم عنه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأيضًا تكلم عنه ابن مفلح في كتابه: [**الآداب**] فإن فيه ضررًا على البدن، على البدن نفسه يُرخي البدن، ويُكسل البدن، ويُضعف البنية، ويجلب أنواعًا من الأمراض للإنسان، هذا تكلم عنه ابن القيم -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ- في كتابه: [**زاد المعاد**]، وأيضًا تكلم عنه ابن مفلح في كتابه: [**الآداب**]، وغيرهما من أهل العلم، وهو وقتٌ قصيرٌ جدًا، وقت قصير يعني ربما أنه لا يستغرق ساعة.

وسواءً بقيت في المسجد، أو تحركت إلى مكانٍ ما احتجت إلى التحرك إليه، أو ذهبت إلى بيتك، لا تفوت هذا الوقت الفاضل من ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وحقيقةً يا إخوان الذي نقوله هنا أنه لا حول لنا ولا قوة، نقول: اللهم أعنا على ذكرك، هذا الذي نقول، يعني قد نُدرك الفضيلة، ولكن يغلبنا ماذا؟ يغلبنا الكسل، يغلبنا الخمول، يغلبنا أمور كثيرة جدًا، لكن نستعين بالله، والعلماء قديمًا يقولون: "إذا عرفت فالزم"، فيبدأ الإنسان، يعني لعلنا جميعًا إذا كان منا من يفوت هذا الوقت لعلنا نبدأ من الغد بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حياةً أخرى مع طريقةٍ مباركة كان عليها سلفنا الصالح رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ من حيث الاهتمام بهذا الوقت، إذا كنت مضطرًا لتنام فتنبه، إذا كنت في البيت هل طلعت الشمس؟ إذا طلعت الشمس وأنت لا ترى نفسك محتاجًا للنوم فنم بقدر الحاجة.

أما هذا الوقت وقت البركة، ووقت الغنيمة، وقت قسم الأرزاق، حلول البركات، الوقت الذي قال فيه النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**بُورِكَ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا**»، ما يليق أن ينام فيه الإنسان، لا يُقال: إن النوم فيه حرام، ولكنه مثل ما قال ابن القيم: "مكروه عند السلف"، وقت مبارك، ووقت خير وغنيمة وبركة، وتحريٍ للفضيلة، تحريٍ للغنيمة، ليس وقت نومٍ.

فالشاهد: أن أول النهار وهو من صلاة الصبح إلى ما قبل طلوع الشمس، وآخر النهار الذي هو قبل غروب الشمس، هذان من أفضل الأوقات لذكر الله، وجاءت أذكار منوعة في هذين الوقتين ينبغي أن يُحافظ المسلم عليها في هذين الوقتين كما جاء في السُّنَّة، وقد أورد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملةً منها في هذا الكتاب، وستأتي معنا بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لاحقًا.

ذكر هُنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة من الأدلة في بيان فضل ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في هذين الوقتين والحث عليه والترغيب فيه.

أولًا: قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ﴾ [سورة غافر، من الآية:٥٥]؛ الذي هو آخر النهار. ﴿وَٱلْإِبْكَارِ﴾ [سورة غافر، من الآية:٥٥]؛ الذي هو أوله، وكذلك قول الله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [سورة ق، من الآية:٣٩]؛ وهذا فيه أيضًا بيان لوقت الذكر في طرفي النهار قبل طلوع الشمس وقبل غروبها هذا هو وقته، من حين تصلي الصبح إلى ما قبل طلوع الشمس، ومن بعد صلاة العصر إلى قبل غروب الشمس، لكن العلماء يقولون: إذا حصل للإنسان طارئ، أو شيء من هذا القبيل ولم يتمكن من أداءها في وقتها لا بأس أن يأتي بها بعد طلوع الشمس، وكذلك بالنسبة لأذكار المساء بعد غروبها.

أيضًا قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٥٢]؛ الغداة: أول النهار، والعشي: آخر النهار، وكذلك قول الله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [سورة مريم، من الآية:١١]؛ وهذه الآية فيها أيضًا أن الأنبياء قبلنا كانوا يؤكدون على ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في هذين الوقتين الفاضلين.

وأيضًا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [سورة الطور، من الآية:٤٨-٤٩]؛ وهذا أيضًا فيه التأكيد على ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في هذه الأوقات. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾؛

يعني: حين تقوم من النوم، وهذا يتناول ما يكون من ذكرٍ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الصباح، ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾؛ أيضًا هذا فيه ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى آخر الليل بالتسبيح، والقيام، والذكر لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى حين ينزل الرب جَلَّ وَعَلَا في ثلث الليل الآخر.

قال: وقول الله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ [سورة الروم، من الآية:١٧-١٨]؛ بعض المفسرين -بل جماعة من المفسرين- قالوا: إن هذه الآية نصت على أوقات الصلوات الخمس المكتوبة، فقوله سبحانه: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾. ﴿حِينَ تُمۡسُونَ﴾؛ هذا فيه صلاة العصر، ﴿وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾؛ في صلاة الصبح، ﴿وَعَشِيّٗا﴾؛ صلاة المغرب والعشاء، ﴿وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾؛ صلاة الظهيرة.

فالشاهد: أن هذه الآية جمعت الصلوات الخمسة المكتوبة.

ثم بعد ذلك انتقل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لذكر جملة من الأدلة في الترغيب في الدعاء، ما سبق من الأدلة فيه ترغيبٌ في الذكر، والآن ينتقل المصنف إلى ذكر جملةٍ من الأدلة في الترغيب في الدعاء.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[سورة غافر، من الآية:٦٠]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[سورة البقرة، من الآية:١٨٦]، وقال تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[سورة الأعراف، من الآية:٥٥-٥٦]، وقال سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[سورة النمل، من الآية:٦٢] الآية.

الشرح:

ثم ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآيات وكلها في الترغيب في الدعاء؛ دعاء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، والدعاء في نصوص الشرع إذا أُطلق يتناول دعاء العبادة ودعاء المسألة، دعاء العبادة بالخضوع لله والذل له، ويدخل في ذلك ذكر

الله وشكره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والتهليل والتحميد كل ذلك من دعاء العبادة، ودعاء المسألة المراد به: الطلب، التوجه إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالسؤال من خيري الدنيا والآخرة، فالدعاء إذا أُطلق يتناول دعاء العبادة ودعاء المسألة.

وقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[سورة الأعراف، من الآية:١٨٠]؛ أي: دعاء عبادةٍ ودعاء مسألة، ادعوه بأسمائه؛ بالثناء عليه بأسمائه، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر هذا داخل في قوله: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾؛ لأن الثناء على الله بأسمائه هو من دعاءه بها، دعاء عبادة، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾؛ أي: اسألوه بأسمائه؛ دعاء المسألة، اسألوه بأسمائه: "يا رزاق ارزقنا، يا كريم أكرمنا" إلى آخر ما يأتي في الدعوات من توسلٍ إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بأسمائه الحسنى.

هنا المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورد جملة من الآيات في الترغيب في الدعاء، بدأها بقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[سورة غافر، من الآية:٦٠]؛ هذه الآية تدل على فضيلة الدعاء من عدة جهات:

الجهة الأولى: أن الله عَزَّوَجَلَّ أمر به، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ﴾؛ فرب العالمين أمر به، والأمر به دليلٌ على فضله، وعظم شأنه عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ﴾.

الجهة الثانية: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعد في هذه الآية بالاستجابة: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؛ فالإجابة مضمونة؛ لأنها وعد رب العالمين والله لا يخلف الميعاد، ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؛ فهذه فضيلة أخرى للدعاء دلت عليها الآية أن الله عَزَّوَجَلَّ يستجيب دعاء من دعاه، ويُلبي نداء من ناداه، ولا يتعاظمه حاجة يُسألها تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يعطيها، ولا ذنبًا يُطلب منه أن يغفره، لا يتعاظمه ذنب، ولا تتعاظمه حاجة خزائنه تَبَارَكَ وَتَعَالَى ملأى؛ فهذه فضيلة ثانية.

الفضيلة الثالثة: أن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾؛ فسمى الدعاء ماذا؟ عبادة، قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾؛ فالآية تدل على أن المستكبر عن الدعاء مستكبر عن العبادة، فالآية تدل على أن الدعاء عبادة، ولهذا جاء في السنن الأربعة من حديث النعمان أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**» ثم تلى هذه الآية: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

الوجه الرابع: أن الآية تدل على أن تارك الدعاء مستكبر، وهذا نوعٌ من الاستكبار، والدعاء لا يُعجز الإنسان ولا يكلفه شيئًا، فإذا كان تاركًا للدعاء غير مبالٍ له به، ولا مهتمٍ به مع شدة حاجته، وافتقاره إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهذا نوعٌ من الاستكبار، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾.

فالشاهد: أن الآية فيها دلالة عظيمة على فضيلة الدعاء، وعظيم مكانة الدعاء عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

كذلك الآية الأخرى وهي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴾[سورة البقرة، من الآية:١٨٦]؛ أيضًا هذه الآية تدل على فضيلة الدعاء ومكانته.

قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾؛ ومن نوع السؤال ما جاء عن بعض الصحابة أنهم قالوا: يا رسول الله! أربنا بعيدٌ فنناديه؟ يعني: نناديه بصوتٍ عالي؟ أم قريبٌ فنناجيه؟ ولهذا جاء في بعض الروايات أن الآية نزلت في جواب مثل هذا السؤال، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾؛ فذكر تَبَارَكَ وَتَعَالَى قربه من الداعين بالإجابة، كما أنه قريبٌ من العابدين بالإثابة، من عبد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهو قريبٌ منه يثيبه على عبادته أعظم الثواب، ومن دعا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فإنه قريبٌ منه يُجيب دعاءه، ويحقق رجاءه، ويعطيه سؤله.

قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾؛ العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ أو بعض المفسرين أخذوا من هذه الآية فائدة لطيفة جدًا، هذه الآية جاءت في سورة البقرة، وسورة البقرة تكرر فيها في مواضع عديدة يسألونك، أليس كذلك؟ تكرر فيها في مواضع عديدة: يسألونك. ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾[سورة البقرة، من الآية:٢٢٠]، ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِ﴾[سورة البقرة، من الآية:٢٢٢]، ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِ﴾[سورة البقرة، من الآية:١٨٩]، ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ﴾[سورة البقرة، من الآية:٢١٩]، إلى غير ذلك، أسئلة كثيرة جاءت في هذه السورة: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾، وفي كل ذلك يأتي بعد قوله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾ ماذا؟ ﴿قُلۡ﴾. ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾[سورة البقرة، من الآية:١٨٩]، ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذًى﴾[سورة البقرة، من الآية:٢٢٢]، إلى غير ذلك، فتأتي كلمة: ﴿قُلۡ﴾.

هنا فيه سؤال ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٨٦]؛ لم تأتي كلمة: ﴿قُلْ﴾. قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ لم تأتي كلمة: ﴿قُلْ﴾. هناك جاءت كلمة: ﴿قُلْ﴾. في الأحكام يسألونك عن الحكم الفلاني فقل ماذا؟ حكمه كذا، وهنا الباب باب عبادة ودعاء وتوجه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾؛ أخذ العلماء من هذا فائدةً لطيفة: أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ واسطة بين الله وبين خلقه في إبلاغ الدين، يسألونك عن كذا قل كذا، فهو واسطة بين الله وبين خلقه في إبلاغ الدين، وليس واسطةً بين الله وبين خلقه في عبادة الله، من يعبد الله، من يدعو الله، من يلتجأ إلى الله يتجه إليه بدون أن يجعل بينه وبين الله واسطة، ولهذا ارتفعت "قل" هنا.

قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾؛ لم يقل: فقل إني قريب، قال: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ وارتفاع "قل" هنا فيه إشارة إلى أن الواسطة هنا مرتفعة ما في واسطة.

مثل الأحكام؛ الأحكام ما تستطيع أن تُباشر أي حكم إلا بماذا؟ إلا بطريق البلاغ من النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أما عبادة الله إذا أردت أن تتجه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالعبادة فلا تجعل بينك وبين الله واسطة، وهي ما يُسميها أهل الضلال: الشفعاء، أو ما يسمونها الوسائل إلى غير ذلك من الأمور التي تُتخذ وسيطًا بين الله وبين خلقه في عبادة الله، وهذا من أضل الضلال وأبطل الباطل؛ لأن مقام العبادة ليس بين الله وبين خلقه واسطة، من يريد أن يعبد الله يتجه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مباشرة.

ولهذا إذا قيل: هل الأنبياء واسطة بين الله وبين خلقه أم لا؟ أيش الجواب؟ الجواب بالتفصيل: إذا كان المراد في إبلاغ الدين؛ فنعم، وإذا كان المراد في عبادة الله؛ فالله يُعبد بدون أن يُجعل بينه واسطة وبين عباده، يُعبد مباشرة، يُتجه إليه مباشرة، ولهذا قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»، مباشرة اتجه إلى الله.

هنا بعض أهل الضلال لأسباب سيئة جدًا ومنحطة، بعض أئمة الضلال يموهون لعوام الناس وجهالهم أن عبادة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا بد حتى ترتفع وتُقبل لا بد أن يكون بين العابد والداعي وبين الله وسطاء، حتى إن بعضهم يقول لموردية ومن تحته من الطلاب والمتلقين عنه، يقول له: إذا أردت أن تذكر الله، أو تدعو الله، أو تعبد الله،

عليك أن تذكر الله من طريقي، وأن تستحضر صورتي وهيئتي وشخصي، ثم تذكر الله؛ لأن ذكر الله ودعاه لا يستقيم ولا يرتفع إلا من طريق الأولياء، ويوهم من عنده أنه من الأولياء.

حتى حدثني واحد هداه الله ومنَّ الله عليه بالتوبة، يقول: كنت عند أحد هؤلاء فكان هكذا يعلمني طريقة الذكر، حتى إنه أحيانًا يقول لي: أفضل لك إذا أردت أن تذكر فأتي عندي، وتنظر إلي وتبدأ تذكر الله وأنت تنظر إليَّ حتى يرتفع الذكر، يقول: اضطررت مرة أن أسافر –نفسه يحدثني أنا– يقول: اضطررت مرةً أن أسافر إلى بلدٍ بعيد فاحترت ماذا أفعل؟ سأكون بعيدًا عن شيخي كيف أذكر الله؟! فأتيته وقلت: أنا الآن مضطر أن أسافر إلى بلد كذا وكذا فماذا أفعل؟ قال: المسألة سهلة تعال لي غدًا وأعطيك الحل، يقول: لما جئته غدًا ووصلت إليه أعطاني صورة له، قال: هذه الصورة تأخذها معك، هذه الصورة تأخذها أي بلد في العالم، أي مكان تكون في العالم ما دام أن الصورة معك خليك مطمئن، خذ معك الصورة، وإذا أردت أن تذكر الله تنظر للصورة، ما دمت ما تتمكن تنظر إليَّ أنا مباشرة انظر للصورة ومن خلال الصورة اذكر الله.

يقول: كنت في بعض الأماكن إذا كان في أناس –نفسه والله يحدثني– يقول: كنت في بعض الأماكن إذا كان في أناس وأخشى أن يراني أحد، أدخل تحت البطانية وآتي بالكشاف الصغير، وأضع الكشاف وأنظر للشيخ وأبدأ أذكر الله.

هذا كله ضلال، كله من عبث أهل الباطل بعقول الناس، والجُهال، والعوام، يعبثون بعقولهم، ويصرفونهم عن العبادة الحقة إلى تعظيم هؤلاء التعظيم الذي لا يليق إلا بمن؟ إلا برب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا لاحظ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[سورة البقرة، من الآية:١٨٦]؛ في أي مكان في الدنيا إذا أردت حاجة اسأل الله، بعض الجهال يقول: لا أنا إذا جاءتني حاجة لازم أذهب عند القبر! لأن الدعاء عند القبر يرتفع، رجعنا للمشكلة ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾؛ أي مكان تكون من قال لك: تحرى الدعاء عند القبر؟! من الذي قال لك؟ في أي كتاب؟ في أي سُنَّة؟ في أي موضع وجدت ذلك؟ أما نقرأ القرآن؟ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾؛ إذًا اتجه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بصدق، اتجه إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بصدق.

حدثني أحدهم أنه ذهب إلى منطقة من المناطق النائية في العالم، يقول: وجدت المسجد الوحيد في تلك المنطقة مغبر ولا تطأه الأقدام، ولا يأتيه الناس، لكنني دخلته ورأيت فيه شخصًا واحدًا، فقلت له: أين الناس؟

المسلمين ما يأتون يصلون، ولا يأتون للدعاء، قال: تحملت عنهم هذا كله، هم مشغولون في الأعمال وفي الوظائف، وأنا تحملت عنهم العبادة والدعاء وكذا، وكل شهر يمرون ويعطوني مقابل! وهو متحمل عنهم الدعاء، ومتحمل عنهم العبادة، أنظر إلى الضياع كيف يبلغ بالناس!

ولهذا يا إخوان لا بد من عودة صادقة إلى القرآن، نذكر الله جَلَّوَعَلَا بالذكر الصحيح، والله بعض الناس قد يُمضي ساعات طوال وهو يعد ذكرًا يحسب أنه يرتفع به عند الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وهو يأثم به، ويجلس ساعات طوال وهو يعد ذكرًا باطلًا يظن أنه يرتفع به عند الله وهو ماذا؟ ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[سورة الكهف، من الآية:١٠٣-١٠٤].

ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أو ابن مسعود كما في سنن الدارمي، وقف على جماعة وهم في المسجد يسبحون ويحمدون ويكبرون ويهللون ولكن بطريقةٍ غير مشروعة، لاحظوا الأذكار التي يقولونها ليس فيها ولا واحد ذكرٌ غير صحيح، كلها أفضل الذكر تسبيح، وتحميد، وتكبير، وتهليل، لكن ما هي الطريقة التي كانوا يفعلونها؟ كان واقف واحد عليهم فيقول: سبحوا مائة، فكلهم بصوت واحد سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله.

دخل عليهم ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: عدوا سيئاتكم، قال: عدوا ماذا؟ سيئاتكم، القوم يسبحون الله، ويقول عدوا سيئاتكم؟ لماذا؟ حتى إنه قال لهم في كلمته لهم قال: "أما والله إنكم جئتم ببدعة ظلمًا، أو فقتم أصحاب محمد علمًا"، اختاروا واحدًا من الاثنين: "إما أنكم جئتم ببدعة ظلمًا، أو فقتم أصحاب محمد علمًا"، قالوا: يا أبا عبد الرحمن والله ما أردنا إلا الخير، فقال: "وهل كل من أرد الخير أدركه!".

الشاهد: أن من أراد أن يذكر الله أو يدعوه فعليه أن يدعوه بماذا؟ أن يدعوه بما جاء في كتاب الله، وبما جاء في سُنَّة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وليحذر من سبل الضلال وطرق الباطل وهي كثيرةٌ له لا حد لها ولا عد، والشيطان أيضًا له نوع من العبث في الناس بهذا الباب.

أيضًا أعطيكم مثالًا مما رأيت: رأيت في إحدى الدول شخصًا يحفظ كتاب الله حفظًا عجيبًا، حتى إنني بدون مبالغة ما أذكر أنني رأيت مثله في قوة الحفظ، قال لي ذلك الرجل: إن في القرآن ثلاث وثلاثين آية كلها تبدأ بلفظ الجلالة، الآية الأولى كذا، الثانية كذا، الثالثة كذا، الرابعة كذا، الخامسة كذا، الثالثة والثلاثين: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾[سورة الإخلاص، من الآية:٢]؛ جاء بها سردًا، يعدها سردًا.

قال لي هذا الرجل: أنني كان يأتيني هاتف في المنام يقول لي: يا لطيف مليون وتسعة وأربعين ألف وخمسمائة مرة، أقوم وأكتب الرقم مليون وتسعة وأربعين ألف وكذا مرة، أكتب الرقم، وأجيب السبحة بألف خرزة، وأبدأ أقول: يا لطيف، يا لطيف، يا لطيف، إلى أن أكمل العدد، يقول: يأخذ مني وقت طويل وأتعب ذهنيًا؛ لأن يقول هذا هاتف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يأمرني أنا، فيقول: إذا انتهيت مجرد ما انتهي "يا حي" تسعة مليون وكذا مرة، ويجيب السبحة بألف خرزة، ويبدأ يعد، يعد، يعد، يعد، يقول: حتى القرآن ضيعته، شوف كيف دخل عليه الشيطان!

هذا الهاتف هل هو هاتف من الرحمن؟ قلت له: هذا من الشيطان، ولا تأخذ به، وسبحان الله جلست معه جلسة والله كأنه جاءه فرج؛ لأن كان في دوامة كل ما انتهى من هذه الملاين جاءته ملايين جديدة بمثل هذه التسبيحات، لماذا يذهبون إلى أخذ الأذكار من المنامات، ومن الهواتف وعندهم القرآن؟ القرآن في صدره يحفظه حفظًا من أقوى ما يكون، ولكنه ما يعمل به العمل المطلوب، أين في القرآن أن تعمل بهذه الهواتف التي تأتي في المنام؟ وأين في سُنَّة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يعمل بهذه الهواتف؟ هل من طرق معرفة الأحكام الشرعية المنامات والهواتف؟ أم أن الأحكام الشرعية بُسطت لنا في القرآن والسُّنَّة، ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٣٨]، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٣].

فالشاهد: أن هناك عبث طويلٌ عريض في باب الدعاء، وباب الأذكار ضلَّ فيه أقوام وأقوام لا حد لهم ولا عد، والسلامة والعصمة بماذا؟ في كتاب الله وسُنَّة نبيه -صلوات الله وسلامه عليه-.

ثم أورد قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٥٥-٥٦]؛ هذه الآية المباركة التي أوردها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، -أو الآيتين- جمعت جملة من الآداب العظيمة للدعاء، ولعلي أشير إليها إشارةً سريعة.

الأول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾؛ الدعاء عبادة لا يلتجئ فيها إلا إلى رب العالمين، لا يستحقها أحدٌ سواه، ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾؛ أي: وحده دون سواه.

الأمر الثاني: قال: ﴿تَضَرُّعًا﴾؛ أي: ألح على الله في الدعاء، وأكثر من الدعاء والسؤال، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يحب منك أن تُلح عليه، يحب إلحاح الملحين، وتضرع المتضرعين، ولهذا قال: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾؛ والتضرع هو الإلحاح، ودوام السؤال، ودوام الطلب، ربي، ربي، ربي، تُلح على الله جَلَّ وَعَلَا.

الأمر الثالث: ﴿وَخُفْيَةً﴾؛ يعني: الدعاء يكون بينك وبين الله، لا ترفع صوتك به، وإنما تدعوه دعاءً خفيًا بينك وبينه بصوتٍ خافت، ليس المراد بالخفية ألا تحرك لسانك، بل حرك لسانك بكلمات الدعاء، ولكن بصوتٍ خافت خفيةً، هذا الأدب الثالث من هذه الآداب.

الأمر الرابع: في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾؛ والاعتداء في الدعاء بابه واسع، ويمكن جمع ذلك في كل مخالفة للسُّنَّة، فقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾؛ فيه التحذير من الاعتداء في الدعاء بمخالفة هدي النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ثم قال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾؛ أي: بعد أن أصلحها الله بالتوحيد، والسُّنَّة، والهدي القويم الذي جاء به النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فلا تفسدوها بالشرك، ولا تفسدوها بالبدع، ولا تفسدوها بالمعاصي، بل اعتنوا بهذا الصلاح تحقيقًا له، ومداومةً عليه، وحفظًا له.

ثم الأمر الآخر في قوله: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٥٦]؛ أي: اجمعوا في دعاءكم بين الخوف والطمع، الرجاء والخوف، وهذان ركنان لا بد منهما في كل عبادة، تدعو الله، وتعبده وتقوم بكل طاعةٍ وأنت ترجو الله وتخافه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ترجو رحمته وتخاف عذابه.

ثم ختمها بقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٥٦]؛ وهذا فيه إشارة إلى تحقيق مقام الإحسان في العبادة وفي كل طاعة، والإحسان كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**».

ثم ختم المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآيات بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النمل، من الآية:٦٢]؛ وهذه الآية أيضًا من الآيات العظيمة التي تُبيِّن مكانة الدعاء وعظيم شأنه؛ لأن من الأمور المتقررة حتى إنها متقررة عند كفار قريش، ولهذا قال الله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ

ٱللَّهِ﴾؛ يعني: مع أنكم تعلمون أنه يجيب المضطر ويكشف السوء وحده دون سواه، تتخذون معه الأنداد، ولهذا قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: قليلٌ تذكركم، وإلا لو كان تذكركم مستقيمًا وصحيحًا وعلى بابه؛ لما كان منكم هذا الشرك والضلال.

ولهذا كان المشركون من كفار قريش يُشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة، ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[سورة العنكبوت، من الآية:٦٥]؛لماذا إذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين؟ لماذا؟ لماذا لا يدعون الأنداد في الشدة؟ لأنهم يعلمون أن الذي يُجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء هو الله وحده، يعلمون ذلك.

فإذا علم المسلم هذا المقام العظيم، وأن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي بيده أزمة الأمور، وهو الذي يجيب المضطرين، ويكشف السوء، ويغيث الملهوف، وبيده أزمة الأمور؛ فإنه لا يلتجئ إلا إليه، ولا يسأل إلا إياه، ولا يدعو إلا إياه، وتكون حاجاته كلها يتجه بها إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لأنه هو وحده الذي يُجيب المضطر، ويغيث الملهوف، ويجبر الكسير، ويشفي المريض، ويُغني الفقير، إلى غير ذلك من الحاجات.

ومن أقبل على الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بصدقٍ في أي حاجةٍ من حاجاته، أو شأنٍ من شئونه أجاب الله دعاءه، وحقق رجاءه، وأعطاه سؤله.

نسأله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ من فضله العميم، وخيره العظيم، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يُصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأن يُصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأن يُصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، وأن يجعل الحياة زيادةً لنا في كل خير، والموت راحةً لنا من كل شر، إنه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ثم أيها الإخوة بمناسبة الكلام عن الذكر والدعاء، وضبطه بضوابط الكتاب والسُّنَّة من الأمور المتقررة عند أهل العلم عملًا بقوله عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»، أن الذكر والدعاء ينبغي أن يُضبط بضوابط السُّنَّة في صفته، وكيفيته، وفي وقته، وفي جميع أحواله يُضبط بضوابط السُّنَّة.

فعلى سبيل المثال: لو أن شخصًا خصص وقتًا من الأوقات لقربةٍ من القربات، أو دعواتٍ، أو أذكارٍ، أو غير ذلك خصصها كليلةٍ معينة، أو يومٍ معين، أو شهرٍ معين، أو وقتٍ معين بدون دليلٍ من الشرع، هل هذا العمل داخل تحت النهي في قوله: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**» أو ليس داخلًا؟

ولهذا ينبغي أن ننتبه الخطأ الذي يقع فيه بعض الناس عندما يخصصون ليلة سبعٍ وعشرين من شهر رجب بعباداتٍ مخصوصة، وأعمالٍ مخصوصة، كـ: مثلًا قراءة السيرة، أو قراءة بعض القصائد، أو قراءة بعض المدائح، أو أشباه ذلك من الأعمال، أو أذكار معينة، أو نحو ذلك من الأعمال؛ فهؤلاء الذين يقومون بهذا العمل يحتاجون إلى أمرين:

الأمر الأول: يحتاجون إلى إقامة الدليل وإبراز الدليل على أن ليلة سبعٍ وعشرين من شهر رجب هي ليلة الإسراء والمعراج، ولا يوجد دليل واضح صحيح صريح يدل على أن ليلة سبعٍ وعشرين من شهر رجب هي ليلة الإسراء والمعراج.

وإذا قرأنا كتب التاريخ نجد الاختلاف الطويل العريض بين أهل العلم في تحديد شهرها فضلًا عن ليلتها، مختلف في تحديد شهر ليلة الإسراء والمعراج فضلًا عن الليلة التي فيها الإسراء والمعراج، ولو كان ليلة الإسراء والمعراج يرتبط بها عبادةٌ مشروعة، لماذا؟ لما خفيت، ولما كان فيها هذا الخلاف الطويل بين العلماء، هذا الأمر الأول.

الأمر الثاني: لو ثبت أن ليلة سبعٍ وعشرين من شهر رجب هي ليلة الإسراء والمعراج، فإن من يقيم فيها أعمالًا مخصوصة يحتاج إلى ماذا؟ يحتاج إلى دليل على مشروعية إقامة هذه الأعمال المخصوصة في تلك الليلة، حتى لو كان يُصلي تلك الليلة من أولها إلى آخرها إحياءً لهذه الليلة، وتقربًا إلى الله بإحياء هذه الليلة يحتاج إلى ماذا؟ يحتاج إلى دليل.

وينبغي أن ننتبه لسنا بأحرص على الخير من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ومن التابعين لهم بإحسان، ولم يكن يُعرف عنهم إحياء ليلة سبعٍ وعشرين من رجب، ولا إحياء ليلة الخامس عشر من شهر شعبان، ولا إحياء ليلة المولد، ما كان يُعرف عنهم ذلك، هذه الإحياءات لهذه الليالي لم تُعرف إلا بعد القرن الثالث في دولة العبيدين بدأت تظهر مثل هذه الأعمال، وتفشو بين الناس.

أما في زمن الصحابة لم يكن لها وجود، والخير في اتباع من سلف، وينبغي على الإنسان أن يتقي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأن يُلزم نفسه بالسُّنَّة، وأن يُقيد نفسه بهدي النبي الكريم، وبما كان عليه الصحابة الكرام، ولا ينساق مع ما تهواه نفسه، أو ما يُرغِّب فيه رفقته بدون دليلٍ من كتاب الله، وبدون مستندٍ من سُنَّة رسول الله -صلوات الله وسلامه عليه-.

فهذا الحديث ينبغي أن يكون أمام أعيننا: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»؛ أي: مردودٌ على صاحبه، وكان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول للناس كل جمعة إذا خطبهم: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ أصدقَ الحَدِيثِ كَلَامُ اللهِ، وَخَير الهُدَى هدى مُحمدٍ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وشرَّ الأمورِ مُحدثاتُها، وكلَّ مُحدَثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ**». «**وكلَّ مُحدَثةٍ بدعةٌ**»؛ يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. «**وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ**»؛ فينبغي على الإنسان أن يعود نفسه على ماذا؟ على الالتزام بسُنَّة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ثم يا إخوان هنا مسألة لا بد من التنبيه عليها، عندما أُسري بنبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وعُرج به إلى السماء السابعة، ما هي الفريضة التي نزل بها؟ ونحن نعلم أن الفرائض كلها كان جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يأتيه في الأرض ويُخبره بها، إلا الصلاة شرَّف الله قدرها، وأعلى مكانها، ورفع منزلتها، فعُرج بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.